دور الدين في إصلاح الثقافة

د. محمد عبد العزيز ربيع

ان عدم قدرة الانسان الاول على اكتشاف وتفسير الجزء الاكبر من اسرار الكون والحياة دفعه إلى اكتشاف وخلق واعتناق اديان مختلفة. إلا أن الإنسان تجاوز معظمها مع حدوث التقدم وتمكن العلم من تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية المحيرة للعقل. ولقد لعب الدين ولا يزال يلعب أدوارا هامة ومتعددة في حياة الانسان ، وذلك من خلال تقديم تفسيرات مرضية لاسرار الكون والحياة التي لا زالت بعيدة عن متناول العلم ، وإمداد الانسان بمنظومة شبه متكاملة من القيم والمعتقدات والشرائع المنظمة للسلوك والعلاقات الاجتماعية . وهذا ساهم بفاعلية في تنظيم حياة الانسان وجعلها اكثر أمنا واستقرارا من النواحي النفسية وأكثر عدالة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

الى جانب ذلك ، قام الدين عامة ، خاصة قبل نشوء الدولة وفي عصور ضعفها وفقدان الثقة بها ، بدور القانون الاخلاقي الذي ساهم في تنظيم بعض أوجه الحياة في المجتمع وساعد على الحدّ من الفقر والجريمة والانحراف. وحيث أن الديانات جميعا تميل بطبعها إلى الادعاء بأنها تمتلك حقائق ازلية من صنع آلهة ذات قدسية، فان القيم والمعتقدات والافكار والتشريعات الدينية أصبحت جوهر الثقافة وبوتقة العلم. ولما كانت الحقائق الموحى بها من قبل الالهية ثابتة وغير قابلة للنقض ، فان الثقافة عامة اصبحت اكثر ميلاً للثبات والجمود وضعيفة القدرة على التطور والتحول تمشيا مع التطورات الاقتصادية والتكنولوجية في المجتمع، كما أصبح العلم، ولقرون طويلة، يدور في فلك التفسيرات الدينية والمعتقدات الغيبية .

قامت الديانات في تفسيراتها لاسرار الكون والحياة بدعوة الانسان الى التأمل في الحياة وليس الى التجربة العملية لاكتشاف قوانين الحياة ، والى اللجوء الى التخيل وليس الى التفكير الواعي ، والى الخوف من الخطأ وليس الى التعلم من الخطأ ، والى الاستلام لما بعد الحياة والعقل وليس الى التمتع بالحياة والاعتماد على العقل . وهذا قاد الى سيطرة الدين على العلم ، كما أدى إلى خلط العلم والخرافات والاساطير الشعبية والدين بعضها ببعض، خاصة وان الكثير من الخرافات والاساطير كانت قد ظهرت وانتشرت كأشياء مقدسة قبل ظهور الديانات السماوية . وهكذا أصبح من المتعذر معرفة ما هو ديني وما هو خرافي، ومن المحظور أحيانا قيام العلم بالبحث عن الحقيقة في ثنايا المفاهيم الغيبية والاساطير الشعبية السائدة. ونتيجة لذلك أصبح البسطاء من عامة الناس اكثر قابلية لتصديق ادعاءات وخرافات لايمكن التأكد

منها او اثباتها علميا، واقل قابلية لتصديق أشياء واحداث يمكن مشاهدتها واختبارها والتأكد من صحتها عملياً .

ومع تجذر المعتقد الديني في المجتع وقيامه بدور العنصر المنظم للثقافة الشعبية أصبح من الصعب على الثقافة والعلم ان يتطورا بالسرعة المطلوبة لمجاراة التطور التكنولوجي الذي يتصف عامة بالحيادية من النواحي الدينية والثقافية والسياسية على السواء. كذلك أصبح من المحظور على العلم والعلماء والمفكرين في الكثير من الاحيان والحالات المغامرة في بحار قد تقودهم الى اكتشاف اسرار كونية او حقائق حياتية تتناقض مع المعتقدات الدينية والقضايا الغيبية. ولقد ترتب على هذا تعثر مسيرة المعرفة العلمية بوجه عام ، وتباطؤ عملية التطور التكنولوجي المؤسس على العلم وقوانينه بوجه خاص، وجمود الثقافة الى حد بعيد. لكن العلماء والمفكرون ورجال الاقتصاد والسياسة واجهوا تحدي المؤسسة الدينية في عصور النهضة الاوروبية وخاضوا حربا طاحنة ضد الكنيسة الكاثوليكية كانت نتيجتها هزيمة الكنيسة بعد حروب دامية دامت ثلاثين سنة وانتهت في عام 1648 بتوقيع معاهدة وستفاليا، وهي المعاهدة التي نصت، بين أشياء أخرى، على فصل الدين عن الدولة. ولقد تبع ذلك إفساح المجال لتحرر الفكر والعقل، وتقدم العلم، وتراكم المعرفة، وتسارع وتيرة التطورات التكنولوجية والتحولات الاجتماعية والثقافية في معظم الدول الاوروبية. ورغم تحالف جهات عدة ضد الكنيسة، فان السبب الاهم لهزيمتها وإعادة هيكلة تعاليمها جاء نتيجة لما واجهته من تحدٍ داخلي استغل ظروف ضعفها وفسادها.

إن قيام النهضة الاوروبية بمواجهة التحدي الديني الكاثوليكي وصولا الى تحرير العقل والفكر والعلم والاقتصاد لم يكن بالامكان حدوثه في حينه لولا الانجازات العربية الإسلامية، خاصة في علوم الرياضيات والكيمياء والقانون والفلسفة. لكن، بينما كانت اوروبا تنهل من روافد العلم العربية وتؤسس عليها صرح نهضته ، كان العرب يدخلون نفق الخلافات السياسية ويغرقون في بحار الخرافات والشعوذة باسم الدين، ويبتعدون عن حكمة العقل ورأي العلم وأصول التعامل مع الاشياء والاحداث بعقلانية. وهذا يعني انه بينما كانت الشعوب الاوروبية تتقدم بثبات وعزيمة نحو الامام وتقوم بالاستيلاء تدريجيا على عملية صنع التاريخ الحضاري للإنسانية، كانت الشعوب العربية والاسلامية عامة تتخلى عن قيادة حركة التاريخ وتخرج منه طوعا لتعيش على هامشه قرونا لم تنتهي بعد.

إن تحرير الفكر من الكبت السياسي، وتحرير العقل من الخرافة كانا مفتاح التقدم العلمي والتطور التكنولوجي والتراكم المعرفي عبر العصور. ولقد تسببت تلك التراكمات والتطورات المعرفية في إيصالنا الى ما نشهده اليوم من عولمة تشمل كافة نواحي الحياة : الاقتصاد، وأسواق المال والاستثمار والتجارة،

والثقافة والإعلام، والعلم والتعليم، وحتى الإرهاب الذي يستخدم العلم وتكنولوجيا العصر لتدمير روح العصر وتشويه معنى التواصل والتلاقح والتسامح بين الثقافات والشعوب. إلا أن ما تحقق لبعض الشعوب من حريات سياسية واجتماعية وتقدم علمي وتكنولوجي لا زال بعيدا عن طموحات الكثير من الشعوب الأخرى، ومن بينها بالطبع الشعوب العربية والإسلامية.

حين كتب عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر عن دور الدين في تحقيق تقدم المجتمع إنطلق من قبول فرضية القضاء والقدر وقيام الخالق باختيار البعض من عباده لدخول الجنة. لكن فيبر قال ان المختارين من الناس يعكسون في مسلكياتهم اليومية الصفات السمحة التي وهبها الله لهم وإختارهم على اساسها لدخول الجنة. وهذا يعني ان التعرف على عباد الله الصالحين والمختارين ممكن من خلال مراقبة اعمالهم وتصرفاتهم وتتبع مواقفهم وأقوالهم. والى جانب ذلك، قال فيبر ان الجد والمثابرة والتفاني في العمل والاخلاص في إتقانه وعدم الاسراف تاتي في مقدمة الاشياء التي دعى الله عباده الى القيام بها. وهذا فرض بالتالي على كل شخص اراد ان يبرهن على كونه من المختارين ان يسلك سلوكا حسنا وان يرضي الله والناس فيما يقول ويعمل.

إن إتجاه فيبر الى التوفيق بين العقيدة الدينية القائمة على الايمان بالغيب، والحاجة المجتمعية للاخلاص والامانة والصدق، والضرورة الاقتصادية للمثابرة والعمل الجاد والابتعاد عن الاسراف والاستثمار جعل من السهل على رسالته ان تجد آذانا صاغية، وان تلاقي القبول والترحاب من مختلف قطاعات الشعب وقياداته السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

إنني اعتقد أن من الممكن إستخدام منطق فيبر لبدء عملية اصلاح ثقافي تنال القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد والمسلكيات السلبية السائدة في المجتمع العربي، وذلك دون ان تلمس مبادرات الاصلاح جوهر القيم الدينية المترسخة في النفوس. وفي الواقع يمكن القول ان مبادئ ماكس فيبر ليست الا افكارا مقتبسة من التراث الاسلامي والاحاديث النبوية التي تدعو الى الصدق والإخلاص وإتقان العمل وعدم الإسراف والتبذير وطلب العلم واحترام الوقت وعمل الخير وخدمة الصالح العام. وهذا يعني ان الارتكاز الى جوهر الدين، وليس إلى شعائره ورموزه فقط، من الممكن ان يساهم مساهمة فعالة في إصلاح اوضاعنا الثقافية دون المساس بمعتقداتنا الدينية.

www.yazour.com

للنشر يوم 6-9-2005

professorrabie@yahoo.com